الغزى الشـــاعر

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

هو شاعر من كبار شعراء العرب عاش فى القرنين الخامس والسادس بعد الهجرة ورحل إلى الشرق فأمضى معظم عمره فى الأسفار ، ونشر شعره بالعراق وخراسان . وكان أحد شعراء العربية الثلاثة الذين عرفتهم بلاد العجم فى القرنين الخامس والسادس . وثانيهم أبو المظفر الأبيوردى الأموى شاعر العربية فى القرن الخامس ، والثالث الأرجانى الذى عاش من سنة ٤٦٠ إلى سنة ٥٤٤ .

ولد الغزى فى غزة هاشم سنة إحدى وأربعين وأربعمائة . وفارق وطنه فى سن الأربعين فدخل دمشق ورحل إلى بغداد . وأقام فى المدرسة النظامية سنين كثيرة . ومدح وولى كثيراً من المدرسين بها — ثم رحل إلى خراسان ومات بها فى طريقه من مرو إلى بلخ سنة ٥٢٣ . ونقل إلى بلخ فدفن بها .

وقد تحدث المؤرخون عن كثرة أسفاره فقال ياقوت فى معجم البلدان : سافر الدنيا . وقال صاحب الخريدة : جاب البلاد وتغرب وأكثر النقل والحركات ، وتنقل فى أقطار خراسان وكرمان .

وقد ذكر هو أسفاره فى مواضع من شعره . يقول :

كم بلدة فارقتها فوجدت فى أخرى مُراداً مكتباً وتمرادا
وتركتها ربداء كالظلم التى يلبسن من فقد البدور ، حدادا
إن كنت سرت عن العراق مؤنبا جيـــا فلست بشاكر بغدادا
فتى أمام وهمتى فوق السها أو يستطيع لى الزمان عنادا

ويقول :

كم لبسنا أمنق الـوابغ ذيلا وطرقنا أحمى القبائل جارا
خلونا بالعامرية والطيل صيـــام والحى ما شـــب نارا
وانكفأنا والفجر يعطس والريـــح تدق بذيلها الآثارا
وشهدنا الوغى وقد رتق النقـــع فتوق الآفاق والأمصارا
ولقينا الملوك عربا وعجما وحصلنا على الجزيل مرارا
ومهونا عن قنص أجنحة المـ ـر بما يصلح المعاد فطارا

وكأنه فى هذه الأبيات يجمل سيرته ، ويذكر خلاصة ما ضيه وتجاربه .

ويقول فى أبيات أخرى .

وطامـــة ترى الخرّيت فيها كأنى تنـــاوله كتابا
ليست قتامها وخرجت منها خروج مهند سُلب القرابا
بسير يحرق النار اشتعالا وعزم يسبق المـــاء انصبابا
ولمـــا قل منتقدٌ وأمت بنانة كل منتحل عقابا
وأصبح منهم الدنيا سناما وخر الرأس وارتفع الذنابى
شمخت بأنف فضلى عن مرام يضم أســـود بيشة والقنابا
وكم أرسلت من مثل شرود سرى فى ظهر قانية لجابا

مدح الغزى كثيراً من أمراء المشرق وملوكه ، كبنى نظام الملك ، والسلطان سنجر بن ملكشاه .

وفى شعر الغزى ، كالابيوردى والأرجانى — وهم عرب خلص عاشوا فى إيران وما يتصل بها فى ذلك العصر وقد حيت اللغة الفارسية وازدهرت آدابها — فى هذا الشعر مجال واسع لتأريخ الأدب العربى وقياسه بالآداب الأعجمية التى نشأت فى حضانته وتحت سلطانه ، وبيان مكانته فى تلك الأقطار .

وفيه كذلك إبانة عن نزعات شعراء العرب فى الأقطار الأعجمية واعتدادهم بأصولهم وتشوقهم إلى أوطانهم .

وقد سبق أبو الطيب المتنبى إلى الحنين إلى الشام ، وافتقاده بنى قومه حينما رحل إلى فارس أشهراً قليلة مدح فيها ابن العميد وعضد الدولة فقال :

أحب حصا إلى خناصرة وكل نفس تحب محياها

وذكر مواطن لهوه فى تلك الأصقاع . وقال أيضاً فى وصف شعب بوان :

ولكن الفتى العربى فيهـا غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها ســـليمان لسار بترجمان

وافتقد ما ألف فى دمشق من ضيافة فقال :

ولو كانت دمشق فى عنانى لبيت البرد صيفى الجفان

تحقيقه فى باقى أوربا هو كيان صناعى ؛ وإن تشابك السياسة والاقتصاد فى الحياة الأوربية والدولية إجمالا ليس من السهل القضاء عليه . ولذلك فإن خبراء لايك سكسس يعتقدون بأن التبادل التجارى بين منطقة النفوذ السوفياتى ومنطقة الحلفاء لن ينقطع مادام أن كلا المعسكرين ليس فى صراع مسلح ، وهذا الاتصال التجارى أحد السدود التى تقف فى وجه اندلاع لهيب جديد

(نيويورك) عمر عليوى
معهد الشئون العربية الأمريكية

وأما الأبيوردي الشاعر الأموي فكان لسان العرب في القرن الخامس . أشاد بمجدهم وتمدح بأخلاقهم وحن إلى أوطانهم وهو لم ينشأ بها ، ولم يعش فيها إلا قليلا في العراق ، حتى سمي قسما من ديوانه النجديات .

وهذا أبو إسحق التنوخي تعاوده ذكرى غزة وباديتها ، وبلاد العرب ، فيعرب عن شوقه وحنينه .

وكما أشاد أبو الطيب بالبداوة حين قال :

ما أوجه الحضر المستحسنات به ... كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية ... وفي البداوة حسن غير مجلوب
بين المميز من الآرام ناظرة ... وغير ناظرة في الحسن والطيب
أفدي ظباء فلاة ما عرفن بها ... مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

أولع الأبيوردي ببوادي العرب وكرر ذكرها والإشادة بالعيش فيها .

ومن قوله في هذا :

ويعجبني نفح العرار وربما ... شممت بعرنيني وقد فاح عنبر
ويخدش عمدي بالحصى صفحتا الثرى ... إذا جسر من أذياله المتعثر
وما العيش إلا الغض يحرشه الفتى ... وورد يحسن البراييع أكدر
بحيث يلف المرء أطناب بيته ... على العز والكوم المراسيل تنحر
ويغشى ذراه حين يثم القرى ... ويسري إليه الطارق المتنور

يفخر في هذه الأبيات بالبداوة ، ويشيد بما يعيز به الأعراب من أكل الضباب فيقول :

وما العيش إلا الغض يحرشه الفتى ... في هذه البادية العزيزة الكريمة

حيث تستحكم الشجاعة والسخاء .

وكذلك التنوخي يحن إلى البادية بين الحين والحين . ويذكر قبائل العرب ويمدحها ولكنه أقل من الأبيوردي حماسة وحنينا ؛ يقول :

أين أيامنا بنزة والعيش ... نضير والدهر رحب المجال
ومزايا حسن البوادي بواد ... بهلال في حلة من هلال

أي بإنسان كالهلال حسنا في حلة من بني هلال .

ويقول في تفضيل البدو على الحضر .

وغضة العين يحمي حسنها خفر ... ولا خفير نمين الحسن كالخفر
سجية في البوادي لا أخل بها ... والبدو أحسن أخلاقا من الحضر
تموم كأن ظهور الخيل تنبتهم ... وما سمت بأنبات بلا مطر
لا يحسر الطيف يجري في منازلهم ... مهابة خيمت في مطرح الفكر
إذا رضوا بشفار البيض معتصما ... عزوا إذا احتاج جانيهم إلى وزر

ويقول :

وأبرح ما يكون هوى البوادي ... إذا رفعوا على العيس القبابا
تسير بكل جارحة حشاها ... أسود يتخذن السمر غابا

• • •

ثم التنوخي بعد وقور في شعره حكيم ، يصوغ الحكم والمواعظ ، ويضرب أمثالا من تجاربه وما لقي من غير الزمان . وهو في هذا الفن يبلغ درجة عالية يمتاز فيها . وهو بهما يفتن في ضروب الشعر لا يستطيع إخفاء زعته إلى الزهد ، وابتئاسه بأحداث الدهر ، وقد عاش الرجل أكثر من ثمانين عاما ، وطوف في البلاد كثيرا فرأى وسمع وجرب ملء الأزمنة التي عاش فيها والأمكنة التي أقام بها .

أنظر إلى قوله :

لا تعجبن لمن يهوى ويصدف ... دنياه فالخلق في أرجوحة القدر

وقوله :

ما الدهر إلا ساعتان : تعجب ... مما مضى ، وتفكر فيما بقي
ولكل شيء مدة فإذا انقضت ... ألفيته وكأنه لم يخلق
والمرء أنصب ما يكون إذا ابتغى ... سعة المعيشة في الزمان الضيق

وهنا يظهر الفرق بين التنوخي القنوع والأبيوردي الذي لا تسع الدنيا همه ومطلبه . ويقول التنوخي .

هلا ذكرت شبابي وهو أغربة ... للبين معربة عن غربة السفر
ليت البياض الذي زال السواد به ... أبقى لنا منه ما في القلب والبصر
قد ضقت ذرعا بعيش لا يسوغ ولا ... تعجبه النفس حتى عيل مصطبري
فلست حيا ، ولا ميتا ، ولا دنفا ... ولا صحيحا ، جميع الداء في الكبر

• • •

التنوخي جدير بعناية أدباء العربية لبلاغة شعره وما فيه من سمان قيمة وحكم عالية ، ثم لما في سيرته من تبصرة بأحوال البلاد الإسلامية في ذلك العصر ، وأحوال الأدب العربي في بلاد العرب والعجم .

وديوانه جدير بالتصحيح والنشر . وقد أدرج كثير من شعره غلطا في ديوان الأبيوردي . ولا بد من نشر الديوانين قضاء لحق الشاعرين ، بالعناية بشعرهما وسيرتهما .

عبد الوهاب عزام